

داعي الدعاة

ونظم الدعوة عند الفاطميين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدعاية من أعظم العوامل التي عاونت على ظفر الحلفاء في الحرب الكبرى؛ وللدعاية في عصرنا أعظم شأن في تكوين الرأي العام، وفي توجيهه إلى النواحي والغايات التي يراد توجيهه إليها، ولا يخفى ما للرأي العام اليوم من القوة والنفوذ حيثما تاح له فرص الظهور والأعراب؛ ففي الأمم الديمقراطية التي مازالت الحريات العامة فيها قائمة مكفولة يتمتع الرأي العام بكل قوته ونفوذه، وبحسب حساباته، ويحدث أثره في توجيه الحوادث والشؤون؛ وحتى في الأمم التي تسودها النظم الطاغية، وتسحق الحريات العامة، ويسلب الرأي العام والخاص كل حرية في القول والأعراب، تنبأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأي السكافة، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين، وإخفاء ما يراد إخفاؤه من عيوب النظم الطاغية والإشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا وتحقيق الإصلاح والخير العام؛ وفي سبيل هذه الغاية تعتمد النظم الطاغية على هيئات قوية محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة كالصحافة والأدب والراديو والتثيل والسينما وغيرها مما تلبس أثره في تكوين الرأي العام وتوجيهه وتنقيفه

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة في النظم الجديدة، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله في غيرها، وقد بلغت في بعض الدول مرتبة الوزارة الخاصة، وأضحت من دعائم الحكم الجديد التي يحسب حسابها في حشد الرأي العام وفي توجيهه حيثما شاءت السياسة العليا. بيد أننا سنرى في هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً، ولم تفرد به تلك الدول والنظم التي تفاخر به وتعتمد عليه، وإنه قد عرف في الدول الإسلامية قبل ألف عام، واتخذ كما يتخذ اليوم أداة قوية لغزو الأذهان وتوجيه رأي السكافة، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة

أجل عرفت الدولة الإسلامية قيمة الدعاية ولجأت في مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة؛ بيد أنها لم تدمج في هيئة خاصة، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا في الدولة الفاطمية. ففي ظل هذه الدولة القوية المدهشة نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة وتوضع لها نظم هي آية الطرافة والبراعة، ونجد هذه الهيئة الرسمية التي تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ترتفع إلى مرتبة الوزارة، وتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لأمامتها وزعامتها الدينية

لما استقر الفاطميون بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية، ذلك أنها لم تجد في مصر كما وجدت في قفار المغرب الساذجة مهذا خصباً لدعوتها، بل ألقت في مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية في بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية، وغزو الأذهان بطريقة منظمة، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة السكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة فإن الدعاية المنظمة هي خير الوسائل لغزو الأذهان المستتيرة وحشدتها لتأييد الدعوة المنشودة. وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها، فكان لهم دعاة في سائر الأقطار الإسلامية؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها، تنساب منه إلى جنبات الأبراطورية الفاطمية الشاسعة وإلى سائر الأقطار الإسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية، ومنذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة، نراها تنتظم في القصر الفاطمي وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها، وكان يقوم بالقاء هذه الدروس قاضي القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين في فقه الشيعة، وكانت تلقى أحياناً في القصر وأحياناً في الجامع الأزهر؛ وبنوه المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية بأقبال الكفاة على الاستماع لهذه الدروس

والجلسات المذهبية فيقول لنا إنه في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضي محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتادفات في الزحام أحد عشر رجلاً ، فكفهم العزيز بالله . يد أن هذه الدعاة المذهبية الظاهرة التي بدأت في صورة الدروس الفقهية المذهبية ، وهي دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة ، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، هي الدعوة الفاطمية السرية التي كانت الخلافة الفاطمية تجد في شبها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشد هائل في حظيرتها المذهبية ، الدينية والسياسية ؛ وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وشبها أن أنشأت لها خطة دينية تضارع في المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها ؛ وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطوط الدينية التي أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها ؛ وكان متوليها يعتد بداعي الدعاة وهو أيضاً من أغرب الشخصيات الرسمية التي خلقتها الدولة الفاطمية ؛ وكان داعي الدعاة يلقى القاضي القضاء في الرتبة ويتزاي بزبه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين في العلوم الدينية وفي أسرار الدعوة ويعاونه في مهمته اثنا عشر نقيباً وعدة كبيرة من التواب يمثلون في سائر النواحي ؛ وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التي يشرف عليها داعي الدعاة ، تلي بعد مراجعة الخليفة وموافقته في إيوان القصر الكبير ؛ وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر ، وهو المسمى بالمحول ، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها فاذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعي فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهي رسم اختياري صغير يجي من المؤمنين للأنفاق على الدعوة والدعاة ، وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب - ورجال الدولة والقصر - ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ؛ وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا في درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة ، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان في الواقع أهم غاية يراد تحقيقها ؛ وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس الشيرة ،

فيعقد للرجال مجالس بالقصر ، ويعقد للنساء مجالس بالجامع الأزهر ويعقد مجالس للأجانب الراغبين في تلقى الدعوة ؛ وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هي سجل فاطمي باقاة داعي الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لاداعة الدعوة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتي : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن باقاة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشيائه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاق عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإفقادهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوفيقهم من علومها على ما يلح لهم سبل الرضوان ، ويفضي بهم روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدي في جوار الجوارد المنان ... »

ومنها في شرح واجبات الداعي وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه وبقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدتم عليه ... ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك ... ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا في مزرعة لا تنكس على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتورد لهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التي تخرج اليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، في قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ،

في الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسيكية

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ نغرى أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطاً صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية و الإعراب عن الشعور الإنساني، وأنظله هذه السمة حيناً، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطاق إلى حياة المدينة، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية، فيرتقي الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغراضه، يد أن الحضارة المادية التي توفرها المدينة لا كيناً ولا توفرها الطبيعة للتبدن، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم؛ وكذلك الثقافة العقلية التي في ظلها يرتقي الأدب رقياً عظيماً ربما زيفت على الإنسان شعوره، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق، وتكيله بالتقاليد والأوضاع، وتضييق حدوده وسد آفاقه، وإبلا الألفاظ فيه المكاة الأولى دون المعاني

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعي التقليدي انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرق منه وأصدق، ولم يعد للأدب الذي غلبت عليه الصناعة من سيل للنهوض، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتراس من الأدب البدوي المرسل الطبع، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التي لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجحاً صادقاً مينا لها، وبغير تلك العوامل الخارجية هيئات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته، وإنما يزداد إمعاناً في التكلف السمج جيلاً بعد جيل، وإغراقاً في اختراع كاذب الأخيلة والآحاسيس ومزجها بالأغيب الألفاظ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يبيغه ذوق أو يقبله عقل

حياة الطبيعة المطلقة في أعتها، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيراً خاصاً، ولكل منهما مزايا هي قادرة على إبداعها الأدب: تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعمد آفاقها ورائع أسرارها ومخاوفها،

ودل على اتصال الممثل بالمتنوع؛ فإن الظواهر أجسام، والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس، والظواهر أرواحها... (١) وفي هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها في غزو الأذهان وحشدها من حولها؛ ومن المعروف أن الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الإمامة الدينية شعارها، ومرجع زعامتها الدينية في العالم الإسلامي، وشرعية ملكها السياسي، والدعوة الفاطمية التي كانت تاتي في مجالس الحكمة إلى الكافة وإلى الخاصة متدرجة في مراتب من السرية والتحفظ طبقاً لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية، كانت رغم صفتها الدينية، ترمي في النهاية إلى أغراض سياسية؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين، ومتى اجتمعوا في ظل الإمامة وتحت لوائها، استطاعت أن تحررهم وأن توجههم وفق مصالحها وغاياتها، وأن تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال والدول الحديثة التي تعتمد في عصرنا على سلاح الدعاية ترمي إلى مثل هذه الغاية؛ فهي تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحياناً على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته. ولم تكن الخلافة الفاطمية، وهي من دول العصور الوسطى، تتمتع بشيء من هذه الوسائل القوية الحديثة، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة، وأن تجني كثيراً من الثمرات المادية والمعنوية، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية. وذيرع هذه الدعوة في قبائل إفريقية البربرية هو الذي جمع كلمة القبائل حول عبيد الله المهدي، وهو الذي مهد لقيام الدولة الجديدة والخلاصة أن فكرة الدعاية التي تنبؤاً في النظم السياسية والاجتماعية الحديثة، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية، مكانة خاصة، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان في عصرنا، ليست جديدة في ذاتها أو غاياتها، وإن كانت جديدة في وسائلها، وقد عرقها الدول الإسلامية قبل ألف عام، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكي وأبرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عثمان